

دموع جمّة على فقيده الأمة للدكتور إبراهيم جالو جالونغو: دراسة أدبية

إعداد:

الدكتور عبد الله محمد إمام

شعبة اللغة العربية جامعة جوس

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين الذي جعل اللغة العربية لغة خير نبي أرسل، وخير كتاب أنزل، كما جعلها لغة أهل الجنان، ووعاء علوم الأديان، وصلى الله على الرسول محمد بن عبد الله، خير من نطق بالضاد، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

يسر الباحث تقديم هذه المحاولة المتواضعة بعنوان "دموع جمّة على فقيده الأمة للدكتور إبراهيم جالو محمد جالونغو". اختار الباحث هذه القصيدة من مجموعات قصائد الشاعر لصلتها بشعب المنطقة. وسوف تتناول المقالة النقاط الآتية:

(١) ترجمة الشاعر وإسهامه في العلم والأدب.

(٢) عرض القصيدة.

(٣) القيم التعبيرية.

(٤) القيم المضمونية

ترجمة الشاعر: إسمه ونسبه:

هو أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن محمد كيارِي^(١) المشهور بلقبه (جالو)، وهو لقب ينسب - عند الفلانين - لكل من سُمّي بإبراهيم،

بمعنى البطل الغالب المنتصر، وينتمي الشاعر إلى قبيلة كَانُورِيٍّ من قِبَل والده، وإلى قبيلة فُلَانِيَّةٍ من قِبَل أمه. انتقلت أسرته من مملكة كانم - برنو في وقت غير معلوم إلى إمارة مِسُو في ولاية بَوْتَشِي حاليًا، ثم إلى القَالِيْرِي في إمارة بَوْتَشِي، وانتقلتُ ثالثًا لتَسْتَقَرَّ^(٢) في جَالِنْعُو في إمارة مُورِي ولاية تَرَابَا حاليًا.

ولادته ونشأته:

ولد الشاعر يوم الرابع من شهر رجب عام ١٩٦٠م في قرية "رَيْقَن" أو قرية "جَتَشِي"، وهي قرية تبعد عن موري بحوالي كيلومترين، ثم انتقلت الأسر إلى مدينة جَالِنْعُو، ولم يتجاوز عمر الشاعر حينئذ خمس سنوات.

نشأ الشاعر - في أسرته - يتيما: لأن والده تُوِّقِي ولم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، إلا أنه تَرَعَّرَ في أحسن حال، وكان يرعى الغنم في أول حياته، ونشأ - بين أقرانه - قائداً ذكياً في كل حركاتهم وسكناتهم. لم يلتحق بالمدرسة النظامية في صباه، بل التحق بالمدرسة القرآنية التقليدية (الكتاتيب)، كما جرت العادة في جُلِّ صبيان المسلمين في غرب إفريقيا^(٣).

تعلّمه:

قد عبر الشاعر ثلاث مراحل في تحصيله للعلم، أبلي في كل منها بلاءً حسناً، شهدت وأشهدت على ذلك الأيام وسجله مؤرخو تاريخه. بدأت المرحلة الأولى من أسرته، ومن والده الذي تعلم منه مبادئ القراءة والكتابة، وتجويد القرآن الكريم، حيث حفظ عنه بعض السور، وأتم حفظ القرآن على يد أخيه الأكبر، الحافظ إلياس. وكان قويّ الذاكرة حيث كان يحفظ ربع حزب يوميًا، وأتم حفظه

وهو في التاسع عشر من عمره. ثم انضم^(٤) في هذه المرحلة إلى المدارس العلمية التقليدية (الدهليزية)، وغطّى في هذه المرحلة منهجها للفقه المالكي من كتاب الأخصري إلى مختصر خليل، كما غطّى منهج النحو والتّصريف والبلاغة والحديث والتفسير، ولم يتجاوز اثني وعشرين من عمره^(٥). وأشهر علمائه في هذه المرحلة: والده، وأخوه الحافظ إلياس، والشيخ إدريس بن عبد الله، والشيخ علي داززو، ومودبُو سنكّان.

التحق في المرحلة الثانية من تعلمه بكلية تدريب معلمي العربية والدراسات الإسلامية في قرية سُغ في عام ١٩٨٣، وتخرج منها بشهادة الدراسات الإسلامية العالية ١٩٨٧م. لقد فتح الله له في هذه المرحلة بإتقان فهم المواد العربية والإسلامية وغيره - ولاسيما التي لا عهد له بها من قبل - فهماً شوّقه وشجّعته على المضي قدماً في التعلم^(٦).

وأما المرحلة العليا بدأت بمحاولته الأولى للحصول على القبول بالجامعة الإسلامية في ساي بجمهورية نيجر عام ١٩٨٨م، ولكن محاولته باءت بالفشل، والتحق بجامعة بايرو في نفس السنة، للحصول على شهادة الدبلوم و حصل على القبول في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة قبل تخرجه، الأمر الذي أدى إلى إغائه لدراسته في جامعة بايرو. قضى الشاعر أربع سنوات في الجامعة وتخرج بالشهادة الجامعية بدرجة جيد جداً في ١٩٩٤م. وأحقّته جدارته بالتسجيل للدراسة الجامعية العليا والتي تخرج منها ١٩٩٨م، ثم سجل لدراسة الدكتوراه في عام ١٩٩٩م في نفس الجامعة أنماها عام ٢٠٠٢م^(٧). وأشهر شيوخه في المرحلة الأخيرة: الدكتور عبد المحسن المنيف، الدكتور مختار الشنقيطي، الدكتور محمد بن عبد الله زربان الغامدي، الشيخ عمر^(٨) الفلاة السعودي.

مناسبة القصيدة

لقد اختار الشاعر للقصيدة عنوان: الدموع الجمّة على فقيد الأمة، وطابق العنوان على مضمون القصيدة. أنتج القصيدة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، في اليوم الثاني من شهر ربيع الآخر عام ١٤١٤هـ^(٩).
قرض الشاعر هذا القصيدة في رثاء فقيد الأمة الشيخ أبي بكر محمود جمبي، قاضي قضاة إقليم نيجيريا الشمالية سابقا. تغمده الله برحمته، والذي توفي صباح يوم الجمعة ١١ - ٩ عام ١٩٩٢م.

عرض للقصيدة

هذه القصيدة هائية الروي، ركب الشاعر بحر الكامل في قرضها، فأحسن التصرف فيه.

فالقصيدّة تتألف من أربعين بيتا ومطلعها:

النفس إن صدمت تقل أناها وبين منها حزنها وشكاها
صل الإله مع السلام على الذي أحيا الشريعة فاستقر حياتها

يتركب هيكلها من مقدمة وصلب وخاتمة، أما المقدمة فتتمثل في البيتين الأولين، والذين يلخصان مضمونها بقوله:

النفس إن صدمت تقل أناها وبين منها حزنها وشكاها
لا يقرب الصبر من ساحاتها بل يبعدنّ ليظهنّ سماتها

يسوق الشاعر القارئ في البيتين إلى حقيقة نفسية، وطبيعة سيكولوجية للنفس، حيث تقف صريعة منكسرة أمام النوازل المفجعة، والمواقف المبكية، وإقبالها إلى الأحزان والحسran، وإدبارها عن الصبر والتجلّد.

انتقل الشاعر إلى لب القصيدة وغرضها، حيث بدأ بالبكاء وإظهار التحسر،
على مصادمة فراق الحبّ الفقيد في البيتين:

إن تبكيئ نفسي فذا من حقها أو تسكتئ فهل تفيد صماتها
العين جارت بالدموع وأكثرت لكن ترى هل ينفعن عبارتها

تطرق الشاعر من البيت الخامس إلى البيت الحادي عشر إلى ذكر البلاء
المفاجع وتحويل هجمه، وفداحه خطبه، وندارة أمثاله فهذه النازلة - عنده -
خراب للبلاد، وهزة ضربت أكباد العباد، وصيحة ثمودية طاغية، وموجة بحر
مظلمة قائمة، أغاصت المراكب حبالها، بلاء تفاقم أمره وندر نوعه، بلاء قلع أشجار
السرور من جذورها وغرست على أنقاضها شجرة الكرب المنكر النكد. منها قوله:

موت المرابي في البلا خرابها يهوي به عمرانها وفلاتها
هو هزة ضربت بلادي كلها فأصيب أغناها ومسكيناتها
طمسُ السرور طباعها وشعارها جلب المتاعب في القرى غاياتها

ثم استمر الشاعر من البيت الثاني عشر إلى الخامس والعشرين، في تعداد
فضائل الفقيد من العلم وخدمة الدين وبناء صرح السنة الغراء على أنقاض
خراب البدع المتهشمة، وإثراء المكتبة الإسلامية بتراث نفيس خالد ينفخ الحياة في
القلوب الفاترة. ثم هنئه بالبشرى وكأنه واقف ومتمثل أمامه عل أن مجهوداته في كل
الأرباع الدنيّة لن تذهب سدى بعد وفاته، بل تبقى تنير الآفاق ومن ذلك قوله:

ذهب المحقق والمتوج بالمعا رف والعلوم تميزت درجاتها
كل أشاد بفضله وبعلمه نعم العلوم تكاثرت ثمراتها
هي سنة المختار قد أحيتها وتناقصت في الناس مبتدعاتها

ألقت خير مؤلفات كلها	تحبي القلوب فلن تعود سباتها
ترجمت آيات الكتاب جميعها	حتى تيسر حفظها وثباتها
أبشر وغرسك قد نمي ثم استوى	وبدا الثمار وعمنا نعماتها
ولإن توفي شيخنا علم الهدى	فجنانه قد أينعت ثمراتها
تبقى إلى أبد تنير بلادنا	لن يضمحل وجودها وحياتها

تطرق القارض من البيت السادس والعشرين إلى الرابع والثلاثين إلى فلسفة قضية الحياة والموت من النظرة الإسلامية المؤمنة، والاتعاظ وأخذ العبر منها، واليقين بانقطاع حبال الحياة بالوفاة، مهما طال الأمد وقدم العهد، وضرب على ذلك مثلاً بالأمم السابقة والسلف الصالح، الذين مهدوا للخلف أسهل المسالك، كما سهلوا لهم الصعاب في العلوم الإسلامية المختلفة، ومع صلاحهم وحميتهم لعلوم الشريعة، فإن الموت لم تكن لتخلد واحداً منهم لحسن فعاله ونفعه لعباده. ومن أبياته في ذلك ما يلي:

شأن الحياة وجودها وزوالها	لا ييقن لواحد حسناتها
هي كالبيوت أساسها وسقوفها	يومًا تنزل ولا ترى حجراتها
هي لن تدوم لواحد حلت به	أين الحمأة لسنة ودعائها
أين الصحابة حاملو راياتها	والتابعون على الهدى ورواتها
ها هم هداة العلم أبطال الوغى	تركوا الدنا فتوحشت عرصاتها

رجع الشاعر إلى ذكر الفقيد باسمه المعروف في البيت السادس والخامس والرابع إلى الأخير، متعرضاً لذكر أخلاقه الحميدة من الورع والزهد في الدنيا

وزخارفها، والصمود أمام جيوشها بكل شجاعة وبسالة، حتى هزمها هجوما في المعركة الأخيرة، فعظم شأنه وعلا قدره بهذه البطولة النادرة، من ذلك قوله:

هذا أبوبكر فريد بلادنا ما غره لذاتها وأداتها
بل إنما صمد الفقيه أمامها ما نال منه سهامها وقناتها
جمع الصفات حميدها ورفيعها فعلت به أعلا العلاء ثمراتها

ثم ختم الشاعر القصيدة بالدعاء للمرثي عنه بالرحمة والمغفرة. ثم صلى وسلم أخيراً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قائلاً:

فارحم إله الخلق شيخ بلادنا وادخله جنات علت عرصاتها
وارحم أبابكر فريد زمانه واجعله في دار سمت درجاتها
صل الإله مع السلام على الذي أحيا الشريعة فاستقر حياتها

القيم التعبيرية

إن الشعور والانفعال هو أول ما يتصوره المن شيء، ولكن تصوره تصويراً خياليا لا يعرفه إلا صاحبه، ولا يتجسد ويقوم إلى حيز الوجود الخارجي، الذي يطلع عليه غير المن شيء، إلا بواسطة التعبير^(١٠) الذي يُختار له ألفاظ وتراكيب ملائمة: لأن الألفاظ هي العصا السحرية في يد الأديب. فاللفظ أو الشكل والمضمون إذن شيء واحد متلاحم، لا انفصام له. إلا أن التعبير هو الوسيلة إلى معرفة الشعور الخارج عن الأديب الإنشائي. وعلى هذا يكون من حق التعبير أن يُقدّم. وعلى هذا المنطلق يقول الجاحظ^(١١): "إن المعاني مشاعر دقيقة في النفس، وعندما يريد الإنسان التعبير عنها يختار لها الألفاظ المناسبة، التي تدل عليها" يدل نص الجاحظ إلى أن المعاني هي أول ما يأخذ إطاره في الذهن، وإذا استوى

فالألفاظ هي التي تعطيه شكله الخارجي الذي بواسطته يشاركه فيه غير في شعوره أو انفعالاته ومعانيه. ثم يحاول المن شيء إليّ الباس المعاني حلاًّ أنيقة مزخرفة بالخيال والموسيقى والانفعال، حتى لا تصل المعاني إلى المتلقي عريانة مجردة، بشعة المنظر كريهة المسمع.

وبناء على ما تقدم بيانه يجوز تقسيم الشكل أو التعبير إلى النقاط الآتية: الموسيقي، المفردات، التراكيب.

أ/ الموسيقى:

هذا عنصر أساسي في صناعة الشعر، يرى النقاد أن النظم الذي خلي منه لا يعد شعراً^(١٢) وهو يتألف من وحدة النغم والانسجام في الوزن والقافية، والجرس والإيقاع. فالجرس هو الصوت الواحد الزنّان الذي يخلل النغم بطريقة منسقة، وأما الإيقاع فهو تكرار ذلك الصوت المترّم في صورة منظمة، بمسافات متوازنة، كما يُجسّ بتلك الروعة في نبرات الموسيقى الخالية من اللفظ. وهذا العنصر مما ينعش السامع ويطربه، وقد يجعله يحرك بعض أعضاء جسمه طرباً، سواء كان واعياً بذلك أو غير واع.

لقد قسم الأدباء الموسيقى إلى نوعين^(١٣): موسيقى خارجية وموسيقى داخلية.

الموسيقى الخارجية:

يسمى هذا النوع بالموسيقى الظاهرة، لأنها ظاهرة محسوسة تعتمد على الوزن والقافية حسب قوانين بحور الشعر الكلاسيكي، كما يستعين الشاعر في ذلك بالمحسنات البديعية التي تحدث أجراساً صوتية زنانة، عن طريق الجناس وحسن التقسيم داخل البيت.

المتحرك في (متفاعلن) فتصير (متفاعلن) بسكون الثاني ثم تنقل إلى (مستفعلن) وهو زحاف جائر الدخول في هذا البحر، في عروضه وحشوه وضربه، وتكفي تفعيله واحدة صحيحة للقصيد أو البيت^(١٦) أن يعتبراً من بحر الكامل.

القافية:

هذه القصيدة هائية القافية، لأن الهاء هي رويها، وهي مطلقة، لأنها متحركة، ومؤسة موصولة بها، واسمها متكوسة لتوالي ثلاث متحركات بين ساكني القافية. وبعد تتبع القافية وحركات حروفها، تبين للباحث أنها سليمة من كل العيوب المتعلقة بالروي أو السناد. وعلى هذا فالشاعر موفق في هذا الفن.

الموسيقى الداخلية:

وتسمى الموسيقى الداخلية، لخفائها وعدم ظهورها وهي تعتمد على اختيار كلمات ذات حروف رنانة، تحدث جرساً يطمئن إليه المستمع، وقد يلجأ الأديب إليها أحياناً للتنفيس بشحنات عواطفه لتوحي إلى معان وجدانية جانبية. وقد اختار الشاعر كلمات غنّانة. استمع إلى قول الشاعر:

لا يقربنّ الصبر من ساحاتها بل يبعدنّ لتظهرنّ سماتها
إن تبكيتنّ نفس فذا من حقها أو تسكتنّ فهل تفيد صماتها

أنظر إلى الهاءات الممدودة في آخر صدور البيتين مع الهاءات المتصلة بالروي، انظر يا ترى كيف تلائم الجو المهيم على القصيدة وهي عاطفة التلهف والحزن والتحسر، على مفارقة الفقيد، وهي قابلة لامتداد الصوت عند العويل: ساحاتها - سماتها. من حقها - صماتها. ثم تأمل نونات التوكيد الخفيفة والثقيلة، المغنّنة

التي تستجيب هي الأخرى لوجدان الشاعر المتحسر الصابر، بإرجاع الأمور إلى الله عند المصائب. وهذا الجرس المترنم ينفس شحنات كرب النفس، فاستمع: لا يقربن - بل يبعدن لتظهرن - إن تبكين - أو تسكتن.

ثم انظر كيف شملت الأبيات الخمسة المتوالية كلمات ذات جرس منسجمة من البيت الخامس إلى العاشر من القصيدة: هو هزة - أو صيحة - أو موجة - تلك الوفاة -، ثم تأمل رنين هذه الحروف وجرسها المنغمة: المحقق - المتوج - تغيب - تسيّر. فتوحشت، كل كلمة من هذه الكلمات تحمل جرساً منفصلاً لشحنات الانفعالات والعواطف حسب المكان الذي وضعت فيه ثم تفتن إلى التناسق والانسجام في المحسنات المعنوية الآتية: أساسها سقوفها - وجودها - زوالها - صحيحها - سقيمها. وهكذا.

ب/ المفردات:

لقد وضع البلاغيون شروطاً لفصاحة الكلمة التي يصطنعها الكاتب من آلاف مفردات معاجم اللغة على أن تكون^(١٧):

- (١) مألوفة، يتبادها الناس في معجم عصرهم وبلدهم بأن لا تكون غريبة في العصر أو المكان أو المواقف التي قبلت فيها.
- (٢) أن تكون خاضعة للقياس الصبر في المطرد.
- (٣) أن تكون عذبة سلسلة في الأذن، غير خشنة تصك الأذان وتنفرها الأذواق السليمة لتنافر حروفها.

ويتتبع القصيدة، يتبين أن الشاعر قد اختار مفردات ملائمة للمعنى المعبر، ليضع صورة شفاقة للموعته وفزعه أمام القارئ حول فراق الفقيده، لأن شعوره

وشحنات جناحه لا يُنْفِسُهَا إِلَّا هَذِهِ الْمَفْرَدَاتُ إِقْرَأْ قَوْلَهُ - غَرْشُكَ - أَيْتَعَتْ
 اضمحل - السَّقِيم - خَرَّابَهَا - جَارَتْ - سِهَامُهَا - فَنَاتَهَا - أَمْثَار - الْمَتَوِّج.
 ثم جرد بعض الكلمات لتؤدّي المعاني الذهنية العقلية، فانظر إلى قوله: الصَّبْر -
 المرِيء - الوَفَاة - المحقِّق - أبوبكر - الفَقِيه - فَارْحَم. السَّلَام - الشَّرِيعَة -
 فَسَّرَتْ - أَلْفَتْ - تَرْجَمَتْ - آيَاتُ - الكِتَاب.

فالمفردات في المجموعة الأولى اختارها لتشيع بالخيال الذي حُمِلَتْ لتسُتْر المعاني
 العقلية، أما في المجموعة الثانية فهي تؤدّي معان عقلية حقيقية. ثم أخضع كل
 المفردات التي استوظفها لقوانين فصاحة، فكلماته مألوفة سلسلة، خاضعة لقوانين
 الصرف، فالشاعر موفق في هذه النقطة كل التوفيق.

ت/ التراكيب:

إذا صح أن الشاعر مُوقِّق في اصطناع المفردات الملائمة، فمن باب أولى أن
 تكون الجمل التي تألفت من تلكم المفردات موقّفة أيضا. لأنه قد أخضعها أيضًا
 للشرط التي وضعت لفصاحة الجمل وبلاغتها وهي أن يكون التركيب قد سلم
 من الآتي^(١٨):

(أ) ضعف التأليف

(ب) تنافر الكلمات

(ت) التعقيد اللفظي

(ث) التعقيد المعنوي

(ج) غرابة مفردات الجمل ووحشيتها

(ح) مخالفة كلماتها لقوانين التصريف.

هذه العناصر منها ما يعود إلى تطبيق علم النحو، ومنها ما يعود إلى اختيار الكلمات من المعجم، ومنها ما يرجع إلى تطبيق علم التصريف، معنى ذلك أن الكاتب يجب أن يكون ملماً بهذه العلوم كلها ليطبقها في تأليفه. لقد ركب الشاعر الجمل ليحملها أنواعاً مختلفة من وجدانه وعواطفه إقرأ هذه الجمل:

العَيْن جَادَت بِالدمُوعِ - أَبْشِرْ وَغْرَسْكَ قَدْ نَمَى - فجنانه قد أُنْعَتَ ثَمْرَاتُهَا -
تُزَيِّنْ عَصْرَنَا بَهْجَاتُهَا - المتوجّج بالعلوم - موت المرابي في البلاد خرابها - تَبْقَى إلى
أبد تُنِيرُ بلادنا - لن يَضْمَحَلَّ وجودها، هذه الجمل تحمل صوراً خيالية، وتوجد في الوقت نفسه بالمعاني عن طريق غير مباشر. هذا شأن الشاعر الحقّ والشّعْر الجيّد.

ثم انظر إلى هذه الجمل: أين الصحابة؟ أين الجهادة؟ شأن الحياة وجودها فزوالها، ترجمت آيات الكتاب، ألفت خير مؤلف - هي سنّة ناصرتها ونثرتها - ذهب المحقّق - هذا أبوبكر فارحم إله الخلق - صل الإله مع السلام - وارحم أبابكر. هذه الجمل تَحْمِلُ معان حقيقية مجردة، تؤدّي معانيها مباشرة، وليست لها معان أخرى غير هذه الحقائق.

يُلاحِظ القارئ أن الشاعر قد حاول جاهداً، في كل الجمل التي أورد أن يُخَضِّعَهَا لشرط بلاغة الجمل، حسب ما سبق بيانه، من حيث سلامة التركيب والتأليف وسلامتها من التعقير المعنوي واللفظي، وسلامه مفرداتها أيضاً من الغرابة أو التفافر بين جميعها كقوله.

موت المرابي في البلاد خرابها * يهوي به عمراتها وفلاتها

تلك الوفاة فريدة من نوعها * هز البلاد سهامها وقناتها

ذهب المحقق والمتوجُّج بالمعا * رف والعلوم تميّزت درجاتها
 أبشّر وغرسك قد نما ثم استوى * فبدا الثمار وغمّنا نغماتها
 هذا أبوبكر فريد بلادنا * ما عره لذاتها وأداتها
 بل إنّما صمد الفقيه أمامها * ما نال منه سهاؤها وقناتها

الآيات السابقة شهادة على أن الشاعر موفق حقاً في شعره، وفي تنسيق الجمل وتأليفها، وإخدامها لأداء المعاني الذهنية والخيالية، وفي اختيار كلمات غير نائية ولا غريبة ولا متنافرة لتأليف جمل في جميع آيات القصيدة.

العاطفة:

يعبر النقاد عن هذا العنصر تعبيرات مترادفة كالوجدان والشعور والإحساس والانفعال، وهو المحرّك الأساسي للشاعر إلى إنشاء قصيدته، أو هو الذي يدفع الشاعر لينفث ما يخلج في خاطره حول ما عاشه أو سمعه أو رآه ليشارك الناس في شعوره.

قسم النقاد العاطفة إلى قسمين: سقيمة - وهي عاطفة متكلفة التي فقدت في جوفها عنصر الصدق، والصدق المقصود هنا هو موافقة الشاعر في قلبه وملته لما يقول عن موضوع شعره، وهو المصطلح عليه بالصدق الفني. أما العاطفة الصحيحة هي التي تتمتع بهذا الصدق الذي سبق ذكره^(١٩).

إن عاطفة الشاعر عاطفة صحيحة، وقد دفعه إلى التعبير عما في ضميره إظهار التحسّر والحزن على فقد أحد قادة الإسلام في غربي إفريقيا.

ومما يؤكد ذلك قوله في عاطفة فيّاضة نحو الفقيد والتحسر لفرقه:

العين جادت بالدموع وأكثرت * ويبين منها حزنها وشكاتها

موت المرّبي في البلاد خرابها * لكن ترى هل ينفعن عبراتها
ويلمس من البيتين كيف عظم الشاعر النّكبة، في رثائه، وهو لها، وحقيق
عليه أن يجود بالدموع، ثم استبكي المستمع لعظمة الفقيّد.

الخيال:

الخيال كما عرفه شوقي ضيف هو الملكة التي يستطيع الأدباء أن يؤلّفوا بها
صورهم، معنى ذلك أن الأدباء يلجئون إلى الصور الخيالية للتنفيس بعواطفهم
وانفعالاتهم التي لا تستطيع المعاني الحقيقية أن تؤدّيها لأنّها تخاطب العقل وتوجهه
إلى أفكار النص، ليستفيد منها، وأما الأخيالة فإنّها تخاطب العاطفة فتمتّعها
وتُجنّنها. وليس للعقل أو المنطق فيها نصيب.

يرى أحمد شيّاب أن الخيال يظهر في التشبيهات والاستعارات والكنائيات^(٢٠)
بينما يرى آخرون أنه يشمل الرمز والوهم والأسطورة والمبالغة المستساغة^(٢١).
ومهما يكن من أمر فإن هذه هي مصادر الخيال، وينبغي تطلية المعاني وإلباسها
إياها، لتأتي المعاني عن طريق غير مباشر، على شريطة أن لا تكون بعيدة عن
العقل السليم إلى درجة الأوهام اللاعقلية الشاردة.

نال الخيال حظاً وافراً من أبيات الشاعر من القصيدة المدروسة حيث وردت
معان كثيرة من القصيدة عن طريق غير مباشرة. ومن ذلك قوله:

موت المرّبي في البلاد خرابها * يهوى بها عمرانها وفلاتها
هو هزة ضربت بلادي كلها * فأصيب أغاها ومسكيناتها
هي سنة ناصرتها ونشرتها * في عصرنا حتى يدت طرفاتها
كالشمس بعد بزوغها وعلوها * لا ينكرن ضياؤها وسراتها

تبقى بقاء الشمس عم ضيائها * كل البلاد خلا ترى ظلماها

شأن الحياة وجودها فزوالها * لا يبقين لواحد حسناها

يلمس من الأبيات تشبيهات مبتكرة، مردوفة بمعان خياليه تزيدها قوة ورؤنقا، وحتى التشبيهات الكلاسيكية ألبسها ثيابا رومنتيكية رائعة. انظر قوله: موت المرئي في البلاد خرابها، ثم أردفها بقوله يهوي بها عمرانها وفلاتها. وقوله هو هزة، ثم قال: ضربت بلادي كلها كأصاب أغناها ومسكيناتها، وقوله هي سنة ناصرتها ونشرتها، في عصرنا حتى بدت طرفاتها كالشمس بعد بزوغها، تبقى بقاء الشمس، ثم إقرأ له أيضا هذه الأبيات:

العين جادت بالدموع وأكثرت * لكن ترى هل ينفعن عبراتها

أبشر وغرسك قد نمتى ثم استوى * فبدا الثمار وعمنا نعماتها

ولأن توفي شخنا وزعيمنا * فجاناه قد أينعت ثمراتها

هذا أبوبكر فريد بلادنا * ما غره لذاتها وأداتها

بل إنما صمد الفقيه أمامها * ما نال منه سهامها وقناتها

هذه صور خيالية بحقيقة معانيها، تزيد الشعر جودة وروعة وإليك هذه الصور: العين جادت بالدموع، أبشر وعشرك قد نمتى، فبدا الثمار وعمنا نعماتها، فجاناه قد أينعت ثمراتها، ما نال منه سهامها وقناتها، هز البلاد سهامها وقناتها، طمس السرور طباعها وشعارها، حلب المتاعب في القوى غاياتها.

هذه كلها تحمل معان خيالية أو صورًا خيالية رائعة، المتأصلة من المجاز اللغوي واستعارات تصريحية وممكنية. وهي أعلى درجة التشبيه، خد مثلا في البيت الثاني يقول:

أبشر أيها الشيخ الفقيه، وكأنه يتمثل أمامه، إن التعليمات التي قمت بها في حياتك بين الناس لن تضحل بوفاتك بل ازدادت ازدهاراً وانتشاراً، فطلابك الذين علمتهم يقومون في دورهم بنشر العلوم والفنون ويعم البلاد والعباد هذه المعارف والعلوم التي تأصلت منك. ثم لم يجد طريق إبلاغ هذا المعنى فأخطاه بالخيال، شبهه بالغرس وشبه الطلاب الذين استووا على سوقهم والذين يتولون نشر العلم والتربية شبههم بالثمار اليانعة لتلك الشجرة التي غرسها الشيخ، ثم شبهه إسهامهم في العلم والتربية والمعرفة بخيرات تلك الثمار اليانعة البلاد والعباد غذائياً واقتصادياً. ولم يذكر المشبه في كل، بل رمز إليه بشيء من لوازمه. وهكذا، فكل جملة من الجمل التي خصها البحث بالذكر تحمل أمثال هذه المعاني الخيالية علاوة على معانيها اللغوية، التي تحدد الرجل العادي خلاف المقصود.

الفكرة:

الفكرة في العمل الأدبي هي العصارّة التي يعتصرها أو يمتصها القارئ، بعد أن تمتع بموسيقاه الرائعة وصوره الخيالية الممتعة وعواطفه الجياشة، تبقى الفكرة في عقله كي يستفيد بمغزاها في توجيه حياته حسب نوعية الفكرة، فإن كانت خيراً فخير وبالعكس.

لقد اختلف النقاد في تقديم أيهما اللفظ أو المعنى؟ لقد ذهب الجاحظ^(٢٢) قديماً إلى تقديم رشاقة اللفظ، حتى زعم أن المعنى مطروح على الأرض يعرفه العجمي والعربي والحضري والبدوي، لكن عز الدين الأمين يعاكس الجاحظ في رأيه، وأنه يرى أن مضمون الأدب هو أعظم خطراً من شكله، لأنه هو المحرك

الحقيقي لحياة الشعب والموجه الحقّ للمُجتمعات، إما إلى الخير والنّفع أو إلى الشرّ والضّر^(٢٣).

ويمكن حصر أفكار هذه القصيدة في الأمور الآتية:

(١) إظهار التحسر والحزن على مفارقة الفقيد والعجز على الصبر والتجلد لهذه الصدمة المفاجئة.

(٢) البكاء وإراقة الدموع للتخفيف والتبرّد من هذا الحزن والأسى وإن كان البكاء لا يجدي أكثر من ذلك.

(٣) إظهار عظمة النكبة في البلاد وتجاوب صداها بين الشعب في المدن والقرى والعامّة والخاصة.

(٤) بيان فضل الفقيد بين الناس أيام حياته في العلم والتدريس والكرم والسخاء والزهد والورع والعفاف.

(٥) آثار الشيخ في إحياء سنة النبي صلى الله عليه وسلم وإخماد البدع التي عم بلواها هذا البلد.

(٦) ذكر مؤلفاته الكثيرة منها ترجمة القرآن إلى لغة الهوسا، وتفسير رد الأذهان إلى معاني القرآن.

(٧) بقاء تعليمات الشيخ وأعماله وآثاره بين الناس، لانتشار طلابه في أنحاء البلاد وتمسكهم بهذا المنهج في التدريس والوعظ والإرشاد وإحياء المساجد.

(٨) فلسفة الموت والحياة هذه حقيقة واقعية فكل حي يموت مهما كان فضله بين الناس وعلى هذه السنة توفي الفقيد كما سبقه في ذلك من هو أفضل منه في الفضل كالصحابة والتابعين وتابعيهم الذين خدموا الإسلام

ووضعوا أساس العلوم ونقحوا الأحاديث ووضعوا قواعد معرفة صحيحها وسقيمها وموضوعها كلهم قد ماتوا قبل الفقيه.

(٩) الدعاء للفقيه بالرحمة حيث دعا الله سبحانه وتعالى أن يرحمه ويجعل الجنان مثواه.

الخاتمة:

حاولت الباحث في الصفحات السابقة أن يقف على شاعرية الشاعر، ثم تناول التعريف بالقصيدة وعرضها. ثم راجع سياقه إلى فلسفة الحياة وأن الموت لا ينجو منها أحد لحسن فعالة وتساءل أين الصحابة؟ وأين التابعون؟ ثم دعا أخيراً للفقيه بالرحمة والفوز بالجنة والغفران.

ثم حاولت المقالة أن تدرس قيمة القصيدة التعبيرية، وتناولت أولاً أصغر وحدة في الشكل، وهي الموسيقى التي تنشأ من أصوات الحروف ونبراتها ومدودها، قسم الموسيقى إلى قسمين الخارجية والداخلية. ثم تكلم عن المفردات وشروط اختيارها ووظائفها، لإعطاء المعاني الذهنية والخيالية، كما تعرض للتراكيب والجمل وشروط صحتها ووظائفها المجازية والحقيقية.

حاول البحث دراسة القيم المضمونية للقصيدة بادئاً بالعاطفة، ثم تكلم عن أقسام العاطفة وصحتها وسقمها وآراء النقاد فيها. ثم تطرقت المقالة إلى الخيال.

الهوامش والمراجع:

- (١) طاهر سليمان: شخصية الدكتور جالو جالنجو وإسهامه الأدبي: عرض ودراسة، بحث قدم إلى جامعة ميدغوري، على مستوى الماجستير في اللغة العربية ٢٠١٤، ص: ٢١.
- (٢) أحمد إبراهيم بُوْتَشِي: أشعار إبراهيم جَالُو جَالِنُجُو من عام ١٩٩١م إلى ٢٠١١م، بحث قدم إلى جامعة عمر موسى يَزَادُوَا كَتَسْنَا، على مستوى الماجستير في اللغة العربية ٢٠١٤م، ص: ٢٤.
- (٣) طاهر سليمان: المرجع السابق، نفسه، ص: ٢٤.
- (٤) أحمد إبراهيم بُوْتَشِي: المرجع السابق، نفسه، ص: ٢٦.
- (٥) طاهر سليمان: المرجع السابق، نفسه، ص: ٢٤.
- (٦) أحمد إبراهيم بُوْتَشِي: المرجع السابق، نفسه، ص: ٢٧.
- (٧) أحمد إبراهيم بُوْتَشِي: المرجع السابق، نفسه، ص: ٢٨.
- (٨) طاهر سليمان: المرجع السابق، نفسه، ص: ٢٤.
- (٩) طاهر سليمان: المرجع السابق، نفسه، ص: ٢٦.
- (١٠) أحمد إبراهيم بُوْتَشِي: المرجع السابق، نفسه، ص: ٣٨.
- (١١) سيد قطب: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق بيروت، ط ٥، ١٩٨٣م، ص: ٣٦.
- (١٢) زهني محمود (الدكتور): تذوق الأدب طرقه ووسائله، بدون تاريخ، ص: ٢٤٧.
- (١٣) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون تاريخ، ص: ١١.

- (١٤) عبد السلام السوفي (الدكتور) وغيره: النقد الأدبي ج ١، ١٩٨٢م، ص: ٤٦.
- (١٥) ابن رشيق القيرواني: العمدة، ج ١، دار الجيل لبنان بدون تاريخ، ص: ١٣٤.
- (١٦) إبراهيم أنيس: المرجع السابق، نفسه، ص: ١١.
- (١٧) أحمد الهاشمي (السيد): جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، شركة الدس ٢٠٠٩م، ص: ٣٣.
- (١٨) زهني محمود (الدكتور): المرجع السابق، نفسه، ص: ٢٤٨.
- (١٩) علي نائي سويد (الأستاذ): كيف نتذوق الأدب العربي، دار العربية بيروت ١٩٨٧م، ص: ١٥.
- (٢٠) أحمد شياب: أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ط ١، ص: ١٦٧.
- (٢١) عز الدين الأمين: مسائل في النقد، مكتبة وهب القاهرة، ط ١٢، ١٩٦٤م، ص: ١٥.
- (٢٢) كمال زكي (الدكتور): النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته، ص: ٧٥٦.
- (٢٣) عز الدين الأمين، المصدر السابق نفسه، ص: ١٥.